International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
IJESA
Vol. (5), No. (4) April 2026 الإصدار (5)، العدد (4)

التقارب الوظيفي والتباعد الهوياتي بين الفرنجة والمسلمين في بلاد الشام (1099–1291م)

عيادة عاشور هرهور
أستاذ مساعد، تخصص تاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا
aiyadaharhour@gmail.com

ملخص

تتناول هذه الدراسة أنماط التفاعل بين الفرنجة والمسلمين في بلاد الشام خلال فترة الحملات الصليبية، مع التركيز على مفهوم التقارب والتباعد في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية. وتوضح الدراسة أن المعاهدات السياسية لعبت دوراً محورياً في تنظيم الصراع وضمان استمرار الحياة اليومية، وخاصة عبر توفير الممرات الآمنة للتجارة ودفع الضرائب، رغم هشاشة هذه الاتفاقات وكثرة خرقها بسبب التوتر الديني والسياسي. وتكشف الدراسة أن الدوافع الفردية لبعض الفرنجة، إلى جانب المصالح الاقتصادية، ساهمت في خلق علاقات متناقضة بين الحرب والتعاون، هذا وتبرز الدراسة أهمية النشاط التجاري في تشكيل علاقات تقارب غير مباشرة، حيث استمر التجار الإيطاليون في التعامل مع المسلمين حتى أثناء الحملات، وطوروا هوية مهنية تجاوزت الانتماء الديني في بعض الأحيان. كما تشير إلى أن الحياة اليومية في المدن الساحلية مثل عكا شهدت أشكالاً من التعايش المكاني والاقتصادي، رغم استمرار التمايز الديني والاجتماعي وفي الجانب الثقافي، تناولت الدراسة وسائل التواصل مثل الإيماءات واللغة العربية، والتي ساعدت في تقليل فجوة التفاهم خلال الدبلوماسية، إضافة إلى تأثير التبادل العلمي وخاصة في المجال الطبي حيث استفاد الفرنجة من المعرفة الطبية العربية واليونانية، وتبنوا أنظمة مثل ترخيص الأطباء المستوحى من النظام الإسلامي. كما أظهرت الروايات الطبية مثل ما ورد عند ابن منقذ، وجود تفاوت في المهارات الطبية بين الجانبين مع حالات نجاح وفشل، وتخلص الدراسة إلى أن العلاقة بين الفرنجة والمسلمين لم تكن صراعاً خالصاً ولا اندماجاً كاملاً، بل مزيجاً من التقارب والتباعد تحدده الهوية الدينية والظروف السياسية والاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: المعاهدات السياسية، التقارب الثقافي، التجارة في الحروب الصليبية، الطب في العصور الوسطى، الهوية الدينية.

Functional Convergence and Identity Divergence between the Franks and Muslims in the Levant (1099–1291 AD)

Ayada Ashour Harhour
Assistant Professor, History, Faculty of Arts, Al-Asmariya Islamic University, Libya
aiyadaharhour@gmail.com

Abstract

This study examines the patterns of interaction between the Franks and Muslims in the Levant during the Crusades, focusing on the concepts of convergence and divergence in political, economic, and cultural relations. The study demonstrates that political treaties played a pivotal role in regulating conflict and ensuring the continuation of daily life, particularly by providing safe passage for trade and tax collection, despite the fragility of these agreements and their frequent violations due to

religious and political tensions. The study reveals that the individual motivations of some Franks, alongside economic interests, contributed to creating contradictory relationships between war and cooperation. Furthermore, the study highlights the importance of trade in shaping indirect relationships of convergence, as Italian merchants continued to trade with Muslims even during the Crusades, developing a professional identity that sometimes transcended religious affiliation. The study also indicates that daily life in coastal cities like Acre witnessed forms of spatial and economic coexistence, despite the persistence of religious and social distinctions. On the cultural front, the study examined means of communication such as gestures and the Arabic language, which helped bridge the gap in understanding during diplomacy. It also explored the impact of scientific exchange, particularly in the medical field, where the Franks benefited from Arabic and Greek medical knowledge and adopted systems such as physician licensing inspired by the Islamic system. Furthermore, medical accounts, such as those of Ibn Munqidh, revealed disparities in medical skills between the two sides, with instances of both success and failure. The study concludes that the relationship between the Franks and Muslims was neither pure conflict nor complete assimilation, but rather a mixture of convergence and divergence defined by religious identity and political and economic circumstances.

Keywords: Political Treaties, Cultural Convergence, Trade During the Crusades, Medieval Medicine, Religious Identity.

مقدمة

شهدت بلاد الشام خلال فترة الحملات الصليبية الممتدة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر حالة معقدة من التفاعل بين الفرنجة والمسلمين لم تقتصر على الصراع العسكري المحض، بل امتدت لتشمل مجالات التجارة والدبلوماسية والتنظيم الإداري والتبادل الثقافي المحدود حيث فرضت ضرورات الواقع نوعاً من التوافق والتقارب المتمثل في عقد الهدنات وتأمين المسالك التجارية والتواصل الدبلوماسي مما جعل العلاقة مركبة تجمع بين التباعد العقائدي والتقارب العملي.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية الدراسة من تسليط الضوء على جوانب التفاعل والتقارب التي لم تنل حظها الكافي في الدراسات التقليدية وإبراز كيف ساهمت الضرورات الاقتصادية والاجتماعية في خلق مساحات من التعايش والتفاهم النسبي بما يساعد على تقديم فهم متوازن لهذه المرحلة التاريخية وإعادة تقييم الصورة النمطية عن العلاقات الإسلامية الفرنجية.

هدف الدراسة: تهدف الدراسة بشكل أساسي إلى تحليل مظاهر التوافق والتباعد في مجالات المعاهدات والتجارة والطب والإدارة وفهم العوامل الحاكمة لهذه العلاقات وعلى رأسها الهوية الدينية والواقع السكان.

أسباب اختيار الدراسة: قد وقع الاختيار على هذه الدراسة لأهميتها في تصحيح الرؤية الأحادية التي تختزل تلك الحقبة في إطار الحملات فقط معتمداً على مادة علمية غنية وفرتها كتب الرحلات كرحلة ابن جبير وكتابات المؤرخين المسلمين واللاتينيين ولتحقيق هذه الأهداف.

مشكلة الدراسة:

- كيف تمكن للفرنجة والمسلمين تحقيق مستويات من التقارب العملي السياسي والاقتصادي والمؤسسي في ظل استمرار التباعد الديني والهوياتي؟ وما حدود هذا التقارب؟ وما هي أسبابه؟ والنتائج التي ترتبت عنه؟
- ماهي العوامل التي سمحت بقيام تقارب وظيفي رغم العداء الديني؟

- لماذا بقي هذا التقارب محدوداً ولم يتحول إلى اندماج ثقافي أو فكري؟
- هل كان هذا التفاعل ضرورة فرضتها ظروف الواقع أم خياراً استراتيجياً واعياً؟

منهج الدراسة: اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي القائم على جمع المادة من المصادر الأولية بالإضافة إلى المراجع الحديثة مع توظيف المنهج المقارن لإبراز أوجه التشابه والاختلاف في مواقف الطرفين تجاه القضايا المشتركة.

حدود الدراسة: الفترة الزمنية (1099-1291م) أما الحدود المكانية تتمثل في بلاد الشام والولايات الصليبية. أما عن الحدود البشرية تتركز الدراسة على الفرنجة هم (المستوطنون) والمسلمون السكان (الاصليون).

هيكل الدراسة: تتكون من محورين رئيسيين هما:

- المحور الأول: الإطار البنيوي للتفاعل السياسي والاقتصادي والمؤسسي (المعاهدات وإدارة الصراع – النشاط التجاري– المحاكم- الحمامات العامة).
- المحور الثاني: الإطار التفاعلي والثقافي (وسائل التواصل – نقل المعرفة – أنماط الحياة اليومية).
- الخاتمة.
- قائمة المصادر والمراجع.

الدراسات السابقة:

1- دراسة (Joshua Prawer,1972) يرى Joshua Prawer في دراسته حول The Latin Kingdom of Jerusalem أن المجتمع الفرنجي في بلاد الشام لم يكن مجتمعاً مندمجاً مع السكان المحليين، بل كان في معظمه مجتمعاً استعمارياً ذا طابع عسكري، واعتمد على أقلية حاكمة فرضت سيطرتها على أغلبية سكانية محلية، ويؤكد براور أن التفاعل بين الفرنجة والمسلمين كان محدوداً في البنية الاجتماعية، وأن مظاهر التقارب لم تتجاوز الجوانب العملية مثل الاقتصاد والإدارة، دون أن تصل إلى اندماج ثقافي أو فكري عميق.

2- دراسة: روني إلينبلوم (Ronnie Ellenblum,2003) يقدم روني إلينبلوم Ellenblum في دراسته حول الاستيطان الريفي الفرنجي في بلاد الشام تحليلاً مختلفاً نسبياً؛ حيث يوضح أن الفرنجة لم يكونوا منعزلين تماماً داخل المدن، بل أسسوا وجوداً ريفياً في بعض المناطق الزراعية، كما بين أن أنماط الاستيطان اتسمت بالانتقائية، إذ تركز الفرنجة في مناطق ذات أغلبية مسيحية شرقية أو في بيئات تسمح باستقرارهم، مما أدى إلى ظهور درجات متفاوتة من التفاعل والتقارب مع السكان المحليين، دون الوصول إلى اندماج كامل.

1-الإطار البنيوي للتفاعل السياسي والاقتصادي والمؤسسي

1.1-المعاهدات السياسية وإدارة الصراع:

كانت هذه المعاهدات تُعقد عموماً للسماح بضرورات الحياة اليومية بالاستمرار، إذ استفاد كلا الجانبين في نهاية المطاف من هذا التوافق فعلى سبيل المثال تم التفاوض على توفير ممرات آمنة للسماح للتجار والأجانب بالمرور عبر أراضي المشرق العربي ومعهم بضائعهم (Riley-Smith,2005 ,p.99) وعند تنقله بين الأراضي الفرنجية والإسلامية، أشار ابن جبير إلى الأمان الذي كان يتمتع به المسافرون المسيحيون والمسلمون، بما في ذلك القافلة التجارية التي كان يسافر معها، وفي مقابل الحصول على الممر الآمن دفع التجار ضريبة للدول المجاورة، وقد قرر الطرفان أنه بينما كانت دولهما في حالة حرب غالباً؛ إلا أن التجارة والسفر كانا من الضرورات التي رغبا في استمرارها، وفي كثير من الأحيان وطالما تم دفع الضرائب كان سفر التجار يتم بسهولة نسبية، وأدت هذه الرغبة في التجارة أحياناً إلى تضارب في الهويات, حيث اصطدمت القناعة بضرورة الحرب المقدسة مع الرغبة في المكاسب الاقتصادية والسلع المادية التي كانت تُجلب إلى الولايات الصليبية التجارة (ابن جبير ،1984، ص300-301). إلى جانب هذا كانت المعاهدات عرضة للانتهاك كما فعل رينالد كما كانت القوافل تخشى اللصوص دائماً و لكن المعاهدات سمحت للتجارة بالاستمرار

إلى حد ما على الأقل، حتى في أوقات الحرب أحياناً (Jacoby,1989,p.84) ولم تكن كل أشكال التوافق التقاربي مع المسلمين تُتخذ من أجل مصلحة العالم المسيحي ككل، أو حتى مصلحة الولايات الصليبية ؛ فـ بالنسبة لبعض الفرنجة كانت أهدافهم الشخصية هي أولويتهم، وليس مصلحة المجموعة الأكبر أو هويتهم كمسيحيين (Talmon-Heller,1992 ,p.197) فعلى سبيل المثال سعى كونراد، ماركيز مونفيراتو (ملك القدس المستقبلي الذي حكم عام 1192) للحصول على المملكة لنفسه، وكان مستعداً لمحاولة القيام بأمور كثيرة لتحقيق ذلك ، وشهدت إحدى تلك المحاولات تقديمه عرضاً لاتفاق مع صلاح الدين يقضي بأن يحافظ على السلام معه مقابل الحصول على نصف القدس، بالإضافة إلى مدينتي بيروت وصيدا ونصف الريف الواقع على جانبه من نهر الأردن ، ولم يكتمل هذا الاتفاق حيث اغتيل قبل أن يتمكن من إنهاء المفاوضات مع صلاح الدين، فلم يكن الفرنجة مجموعة متجانسة وبينما تشاركوا في خصائص عامة، فإن خيارات الأفراد تجاه المسلمين ظلت فريدة من نوعها، وتتقارب أو تتباعد بغض النظر عن هوية المجموعة الأكبر أو أهدافها (Nicholson,2001,p.302) كان الفرنجة أكثر ميلاً للانخراط في توافق عسكري تقاربي مع المسلمين مقارنة بالصليبيين الذين قدموا لفترات قصيرة، وذلك بسبب واقع ضرورات الحياة اليومية التي فرضها الاستقرار الدائم في بلاد الشام وإلى جانب أنهم واجهوا أعداء كُثر بشكل مستمر، ومع ذلك ظلت العديد من هذه الهدنات والمعاهدات قصيرة الأمد وهشة، وهذا يعود جزئياً إلى الهوية الدينية التي حملها الفرنجة والمسلمون والتي منعت الترتيبات الدائمة، وبشكل خاص بالنسبة للمسلمين فقد تجسد ذلك في ممارساتهم العسكرية مع ممارسة السماح بالهدنة وهي هدنات قصيرة الأمد، حيث لم يُسمح للمسلمين إلا بعقد هدنات تصل مدتها القصوى إلى عشر سنوات ، ورغم أن هذه المعاهدات كان من الممكن إعادة التفاوض بشأنها؛ إلا أنه في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر (William ,1943,p.218). ومن بين جميع الهدن المعروفة لم تتجاوز هذا الحد سوى عام واحدة فقط هي الهدنة بين الملك عموري الأول والخلافة الفاطمية في مصر عام 1167م التي كان من المفترض أن تكون غير محددة المدة، وبسبب الطبيعة الهشة للعديد من هذه الاتفاقيات ، حيث لم تخلق المعاهدات بشكل عام تفاهماً فكرياً دائماً أو تقارباً بين العقيدتين، وبعيداً عن الغارات والحصار والمعارك الضارية فإن معظم الاتصالات الدبلوماسية العسكرية التي تمت بين الصليبيين والفرنجة ومسلمي الشرق الأدنى حدثت من خلال النبلاء والحكام الفرنجة ومن خلال الدبلوماسيين والمبعوثين الذين استخدموهم للتنقل بينهم للتفاوض على المعاهدات والهدن، وقد كان الصليبيون والفرنجة منفصلين عن المسلمين الذين قاتلوهم باللغة والدين والثقافة الاجتماعية والسياسية والفكرية.

1.2- النشاط التجاري:

إن التجار الذين قدموا للتجارة في بلاد الشام وأسسوا مراكز تجارية مزدهرة، استجاب تجار المدن الإيطالية لنداء الحرب الصليبية، تماماً مثل غيرهم من المسيحيين، وقدموا السفن وحاربوا في الحملات أيضاً. لكن هويتهم كتجار كانت تتحدى هذه المساعدة العسكرية الدينية، لا سيما وأن تجاراً من مدن مثل نابولي والبندقية كانوا قد أسسوا بالفعل طرقاً تجارية مع المسلمين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قبل الحملة الصليبية الأولى (1096-1099). ومع الحروب الصليبية، توسعت هذه الطرق وأصبحت أكثر ربحية (أبو العافية،1994، ص4). طور التجار علاقات تجارية مع المسلمين، فتاجروا معهم في أوقات الحرب، بل وتاجروا معهم في سلع عسكرية. طور التجار هوية مهنية قائمة على التجارة، وأدت بهم هذه الهوية إلى توافق تقاربي مع المسلمين، وهو ما هدد أحياناً المساعي الصليبية، رغم إيمانهم الديني ودعمهم للمشاريع الصليبية، لقد استجاب التجار الإيطاليون بالفعل مع اهتمام بسلامة الولايات اللاتينية والحركة الصليبية، وأشركوا أنفسهم في الحملات الصليبية بدافع الورع الديني، وإن كان بعض المؤرخين قد اقترحوا أنهم تحركوا بدوافع اقتصادية بحتة. وبينما منحهم العديد من الحكام امتيازات تجارية بسبب دورهم في الحملات الصليبية، إلا أن ذلك لم يكن دافعهم الوحيد؛ فقد سخر الإيطاليون الموارد والسفن لحركة التي كانت نتيجتها مجهولة، ومن المحتمل أن تكون كارثية، دون أن يكون لهم ناتج اقتصادي مفيد مضمون، لقد كانوا مستعدين للمخاطرة بخسارة مالية كبيرة من أجل الحروب الصليبية وإخوتهم المسيحيين. (أبو العافية،1994،ص290) وخلال الحملتين الصليبيتين الثانية(1147-1149) والثالثة (1189-1192) ساعد الإيطاليون الصليبيين في نقل الجيوش والبضائع إلى بلاد الشام، وبمجرد وصولهم هناك انضموا إلى الجيوش الصليبية ضد المسلمين واستعداداً للحملة الصليبية الثالثة (1189-1192)، استعان الملك فيليب ملك فرنسا بالجنويين لنقل جيشه بالسفن إلى الشرق، وفي الحصار الأول لعكا، شكل البنادقة والجنويون بعض أوائل المقاتلين، إلى جانب بارونات الملك غي ملك القدس.(Nicholson,2001,p.69-70) كما شارك البيزيون بنشاط في الحصار حيث قاموا بحماية الشواطئ ومحاصرة المدينة، وهو المنصب الذي كُلفوا به لمهاراتهم في البحر وفي مقابل مساعدتهم، تلقى البيزيون وعداً من الملك غي بالعديد من الامتيازات التجارية والعقارات في جزيرة قبرص. لقد تماهى التجار الإيطاليون مع الأهداف والمعتقدات الدينية للحركة الصليبية، لكن هويتهم

كتجار محترفين رأت أيضاً مزايا محتملة يمكن الحصول عليها، وكان للتجار الإيطاليين علاقة تجارية وهُويَّة قديمة مع المسلمين، تمتد إلى ما قبل الحروب الصليبية؛ فقد تاجر تجار أمال في وبيزا وجنوة جميعاً على نطاق واسع مع الفاطميين في شمال أفريقيا، وبعد عام 969 مع مصر. وبحلول عام 1060، حصل الأمالفيون (سكان مدينة جنوه) أيضاً على حقوق للعمل داخل القدس (William,1943,p.241-242). واستمرت هذه العلاقات خلال الحروب الصليبية؛ حيث انخرط التجار الإيطاليون في تجارة واسعة النطاق مع الدول المسلمة المجاورة، حتى خلال فترات الحرب وفي بعض الأحيان، كانت هويتهم التجارية تتعارض مع هويتهم كصليبيين محتملين، بل وتأخذ الأولوية عليها وفي بعض الحالات، يمكن رؤيتهم وهم يعملون مباشرة ضد المصالح العليا للولايات الصليبية، وشمل ذلك المتاجرة بمواد الحرب مع الدول المسلمة المجاورة ففي عام 1154، أبرم البيزيون معاهدة مع مصر، زودوا بموجبها الفاطميين في الإسكندرية بالأخشاب والحديد والقار، وفي المقابل حصلوا على "الشب" للمتاجرة به في الغرب. وفي عام 1156، حاول الملك بالدوين الثالث ملك القدس (1143-1163) استمالة البيزيين عبر منحهم امتيازات مقابل التوقف عن تجارة السلع والأسلحة مع مصر، إلا أن البيزيين رفضوا لأن الإسكندرية كانت مركزاً تجارياً ضخماً يوفر الوصول إلى طرق تجارية واسعة. وبحلول سبعينيات القرن الثاني عشر، بدأ البنادقة والجنويون أيضاً تجارة واسعة مع مصر، بما في ذلك السلع المستخدمة في مواد الحرب والأسلحة وفي هذه الحالات يبدو أن التجار تماهوا بشكل أقوى مع هويتهم المهنية، وتقاربوا مع التجار المسلمين، وهو ما أدى في بعض الأحيان إلى تقويض النجاح السياسي للولايات الصليبية من خلال مساعدة الجهد الحربي للفاطميين، ولاحقاً للسنة تحت حكم صلاح الدين، عبر تزويدهم بمواد الحرب.(أبو العافية،1994،ص14-16)امتلك الفرنجة السيطرة السياسية على الولايات الصليبية، لكن عددهم ظل دائماً يمثل أقلية مقارنة بالسكان الأصليين؛ حيث يشير المؤرخون إلى أن أعدادهم كانت تعادل تقريباً ثلث عدد السكان الأصليين، ففي ثمانينيات القرن الثاني عشر، تُدر عدد الرعايا بما يتراوح بين 300,000 و360,000 نسمة، بينما تراوح عدد الفرنجة على الأرجح بين 100,000 و140,000 نسمة وقد أثر ذلك على نظرتهم لجدوى الحرب المقدسة، وعلى الطريقة التي عاشوا بها حياتهم اليومية وأماكن عباداتهم، كما أثر أيضاً على ممارساتهم المتعلقة بالتجارة. لم يغير الفرنجة الهيكل الاقتصادي الذي كان قائماً بالفعل في بلاد الشام بشكل جذري، بل تقاربوا مع الهيكل الاقتصادي الموجود، وحافظوا عليه وعملوا من خلاله، مع الإبقاء على القوى العاملة الريفية وهياكل التجارة.(Riley-Smith,2005,p.287) وقد سمح هذا الهيكل للتجار بتعزيز هوية مهنية يبدو أنها كانت تأخذ الأولوية في كثير من الأحيان على هويتهم الدينية، كانت الولايات الصليبية تمتلك مراكز تجارية ضمت تجاراً من ديانات وأعراق مختلفة، بما في ذلك الفرنجة، والسكان المحليين من المسيحيين والمسلمين داخل الولايات الصليبية، وإلى حد أكثر محدودية المسلمين القادمين من مراكز التجارة الإسلامية الداخلية مثل دمشق.(أبو العافية،1994،ص15) ووفرت المدن الساحلية الهامة بما في ذلك صور وأنطاكية وطرابلس وعكا، بيئة متعددة الأعراق والأديان حيث وفد إليها التجار من جميع أنحاء العالم لتبادل بضائعهم.(أبو العافية،1994،ص6) وفي عكا، أكبر المدن المرفئية للفرنجة، اختلط التجار من مختلف الأديان، والمهاجرون، والصليبيون، والحجاج مع بعضهم البعض، وفي المدن الساحلية، مثل عكا، اجتمع تجار ذوو هويات متعددة، حيث أبدى الفرنجة تسامحاً نسبياً تجاه وجود الأديان الأخرى واصل المسيحيون الشرقيون العيش في عكا بعد أن غزاها الفرنجة عام 1104، ولم يكن هناك مجتمع إسلامي دائم، لكن مُنح عدد قليل من التجار المسلمين "أماناً" لإقامة سكن في المدينة ، وكان للتجار الإيطاليين، بمن في ذلك البيزيون والجنويون والبنادقة، أحياؤهم الخاصة في المدينة بعد حصولهم على امتيازات من الفرنجة وعندما مر ابن جبير بعكا، لاحظ عن المدينة قائلًا: "هي محط السفن والقوافل، ومجتمع التجار المسلمين والنصارى من كل الآفاق (أبو العافية،1994،ص325) تضيق طرقاتها وشوارعها بحشد الرجال، حتى يصعب وضع القدم على الأرض" لقد أظهر الفرنجة، وخاصة التجار منهم، تقارباً مكانياً واقتصادياً، حيث عملوا في مساحات متقاربة مع المسلمين من أجل المنفعة الاقتصادية للولايات الفرنجية، سامحين لتجارهم ببيع سلعهم، وجلب الضروريات والكماليات للولايات الصليبية، لقد سمح الفرنجة للتجار من مختلف الأديان بالتجارة في الولايات الصليبية، متقاربين مع النظام الذي كان قائماً من قبل. وشجعت الهوية التي وفرتها مهنة التجارة على الاختلاط من أجل تحقيق أقصى منفعة اقتصادية ومع ذلك، فقد تباعدوا في ترتيباتهم عندما يتعلق الأمر بهيكل السلطة، حيث كان لا يزال هناك فصل بين التجار من مختلف الأديان داخل النظام، ووضع هذا النظام المسيحيين اللاتينيين في المواقع الأكثر تميزاً، مع وجود الأديان الأخرى في مرتبة أدنى. وعندما كانت البضائع تصل إلى المدينة براً، كانت تُفرض عليها ضرائب من قِبل "الفندق" (السوق) بناءً على نوع المنتج وكذلك الأصل العرقي والديني للتجار. وعندما كان التجار المسيحيون يدخلون الأراضي المسلمة كانوا يواجهون عملية فرض ضرائب مماثلة (Prawer,1972,p.404-407). ويشير ابن جبير عندما سافر مع مجموعة من التجار إلى مدينة عكا الفرنجية، بدا وكأنه

يتقبل هذا النظام دون عدائية؛ فلدى وصوله، جرى تفتيش أكياس القافلة التي كان يسافر معها وفُرضت الضرائب المناسبة "برفق واحترام، وبلا تعنيف ولا إجحاف"(ابن جبير،1984،ص317-318) لقد استخدم التجار الفرنجة هويتهم المهنية للعمل في أماكن متقاربة مع المسلمين، وبأسلوب سلمي بوجه عام ومع ذلك، فإن الهوية الدينية للفرنجة في الولايات الصليبية أنشأت هيكلاً ظل فيه التجار، رغم عملهم الوثيق، منفصلين بمعتقداتهم الدينية، ويُعاملون بناءً على ذلك ،ومع تجمع الكثير من الجماعات الدينية والعرقية في مكان واحد.

1.3 -العلاقة مع الفلاحين:

و في المناطق الريفية من بلاد الشام، كان للفلاحين المسلمين اتصال محدود بالفرنجة، وبالتالي كانت فرص التقارب محدودة أيضاً ومع ذلك، وعلى غرار النبلاء الصليبيين انخرطت النخبة من الفرنجة في اتصال مباشر وواسع النطاق مع النبلاء والطبقات التجارية المسلمة داخل المدن ، إن هوية المجموعة التي وفرتها "النبالة" وفضائل "الفروسية" أدت مرة أخرى إلى انقسام أفقي في المجتمع، حيث شكلت النبالة نقطة تقارب، بغض النظر عن الهوية الدينية أو العرقية.(عبده،2001،ص170) ومنذ عام 1985 وحتى 1988 ومن 1989 حتى 1991، أجريت دراسة أثرية في مملكة بيت المقدس اللاتينية، فحص خلالها أكثر من 200 مستوطنة صليبية، تتكون من قرى ريفية وبيوت ريفية حصينة ؛وكانت هذه القرى غالباً ما تتبع قلاعاً يملكها الفرنجة، وكانت تعمل كمراكز تُدار منها الأعمال الزراعية، كما كانت البيوت الريفية الحصينة تعمل أيضاً كمراكز للزراعة، وعادة ما كانت في مواقع أكثر نأياً، وتظهر الدراسات التاريخية أن الفرنجة تجمعوا في مناطق معينة أكثر من غيرها، ويبدو أن المناطق المفضلة كانت تلك التي يشكل فيها المسيحيون الشرقيون إما أقلية قوية أو أغلبية من السكان، وتشير الدراسات إلى أنه عقب مرحلة أولية من الاضطرابات أثناء استقرار الفرنجة، ظلت منازلهم في المناطق الريفية غير محصنة إلى حد كبير حتى بدأ قبضة الفرنجة على أراضي "ما وراء البحار" في التراجع (Adrian J.Boas,2007,p.77-89) واعتمد حجم التقارب أو التباعد الذي حدث في البداية بين الفرنجة والمسلمين بشكل كبير على الطريقة التي غزا بها الفرنجة أراضٍ محددة، فعندما كان الاستيلاء عنيفاً، كما حدث في غزو القدس عام 1099، كان الرد تباعدياً إلى حد كبير، حيث قُتل معظم السكان المسلمين أو أخذوا في الأسر(Kedar,1984,p.149) وعندما كان الاستيلاء سلمياً نسبياً واستسلم السكان الأصليون، ظهرت فرص أكثر للتوافق التقاربي، حيث سُمح للفلاحين بالبقاء في أراضيهم، رغم أن النخبة من المسلمين اختاروا عموماً الانتقال إلى أراض أخرى يسيطر عليها المسلمون، وبعد هذه الفترة الأولية من الاستيلاء العنيف أو التفاوض الاستسلام، لم يكن هناك بعد ذلك سوى مقاومة ضئيلة من السكان الأصليين الذين اعتادوا العيش في بلد منقسم حيث يتغير حاكمهم بانتظام (Asbridge,2010,p.318) ، وطوال فترة وجودهم في الشرق، ظل الفرنجة دائماً أقلية عددية، وهي حقيقة أثرت بشكل كبير على نهجهم تجاه رعاياهم الجدد، ولأن سيطرتهم على بلاد الشام اعتمدت على التحكم في سكان يفوقونهم عدداً بكثير، فقد قدموا قدراً معيناً من التوافق التقاربي لضمان تعاون رعاياهم، وبدلاً من فرض هيكل إداري وسياسي جديد على رعاياهم، تقارب الفرنجة مع الهيكل القائم، محافظين على هياكلهم مشابهة لتلك التي كانت لمن حكموا قبلهم، وإن كانوا قد تباعدوا بوضع أنفسهم في قمة هذا الهيكل، يليهم المسيحيون الشرقيون، (Setton,1969,p.106) بينما وجد المسلمون أنفسهم إلى جانب اليهود، ومع ذلك، فمن المرجح أن الحياة اليومية والتقاليد لم تتغير كثيراً بالنسبة للفلاحين المسلمين، وكان الفرنجة راضين عموماً بالسماح للمسلمين بالحفاظ على دينهم وأسلوب حياتهم طالما ظلوا مسالمين، وفي المقابل، عمل الفلاحون لصالح سيد إقطاعي بإشراف "ترجمان" أو "رئيس"، وهم مشرفون مسلمون عينهم الفرنجة، مقابل تقديم جزء من سلعهم كضرائب، وفي رحلاته عبر الولايات الصليبية سافر ابن جبير عبر أراضٍ زراعية بالقرب من صور ولاحظ أن المسلمين يعيشون حياة مريحة نسبياً تحت حكم الفرنجة، حيث كان هؤلاء الفلاحون يدفعون نصف محاصيلهم وضريبة إضافية على محصول الأشجار المثمرة، بالإضافة إلى ضريبة الرأس، وكانت هذه المبالغ مماثلة أو حتى أقل مما قد يدفعونه في الأراضي الإسلامية، وبخلاف هذه الفرائض فقد تُركوا لشؤونهم (ابن جبير، 1984،ص316) ويبرز فرض ضريبة الرأس الاستجابة التباعدية للفرنجة ؛ فهذه الضريبة كانت مشابهة لضريبة الجزية الإسلامية التي كانت تُفرض سابقاً على أهل الذمة من الرعايا اليهود والمسيحيين، والتي أصبح المسلمون أنفسهم الآن مُطالبين بدفعها ، لقد وضع الفرنجة المسلمين في أسفل السلم الاجتماعي، كما قيدوا حقوقاً قانونية معينة ، وبينما تغير وضع الفلاحين المسلمين في الطبقات الاجتماعية تحت حكم الفرنجة إلا أن الفرنجة تقاربوا مع النظام الإداري القائم بالفعل وسمحوا للفلاحين بالحفاظ على معتقداتهم الدينية وممارساتهم الثقافية، طالما أذعنوا للسيطرة السياسية والضرائب الفرنجية ؛ وبينما لم يواجه العديد من الفلاحين سوى تغيير طفيف بشكل عام في حياتهم اليومية، إلا أن معاملة بعض المسلمين أصبحت أسوأ بكثير تحت حكم الفرنجة، حيث تباعد أسيادهم الإقطاعيون بشكل كبير عن

الممارسات السابقة، مؤكدين سيطرتهم على السكان من الفلاحين المسلمين (المقدسي، 1991،ص91) إذ يعترف المقدسي بأن الفرنجة سمحوا للمسلمين بالصلاة علانية في المساجد وزيارة الأضرحة والذهاب في رحلة الحج إلى مكة و يشير ابن شداد "تأقلموا مع العيش كرعايا للفرنجة... الذين كانوا يجمعون منهم سنوياً ضريبة مفروضة ولم يغيروا قانوناً واحداً أو ممارسة شعائرية تخصهم"(ابن شداد ،1978، ص203)وبينما كان يُنظر إلى الفرنجة الذين حكموا نابلس على أنهم خلقوا ظروفاً معيشية أقسى للفلاحين المسلمين، إلا أن علاقتهم كانت علاقة "مقاومة نادرة وتعاون محدود" لقد اختار الفرنجة في المقام الأول الاستقرار في المناطق التي يسكنها أغلبية من المسيحيين، متباعدين جغرافياً عن المسلمين، ومقللين من فرص حدوث أنواع أخرى من التقارب، وكانت القرى والبلدات المسلمة تخضع لسيطرة أسياد فرنجة، والذين كانوا في الغالب ملاكاً غائبين، وتُدار بشكل يومي من قبل "رئيس" ليكون بمثابة وسيط بين القرية والفرنجة سيدهم الإقطاعي، وهو منصب كان يشغله عادةً أحد رؤساء العائلات المحلية وكان الرئيس يشرف على الإنتاج الزراعي للقرية (Riley,2005,p.178) وعندما وصل ابن جبير إلى مزرعة إسلامية، استقبله الرئيس، وهو رجل أدرك أنه يحظى بموافقة الفرنجة للإشراف على الأرض ومنه تلقى ابن جبير وقافلته الضيافة والسكن (ابن جبير،1984، ص317).

1.4-الحمامات العامة:

كانت "الحمامات العامة" أحد الأماكن التي تواصل فيها نخبة الفرنجة مع جيرانهم المسلمين؛ فقد وفر الحمام مكاناً للتطهر في المناخ الحار، ولكن أكثر من ذلك، وفر مكاناً للترفيه والاسترخاء ، وبالنسبة للمسلمين كان الاستحمام جزءاً من ممارساتهم الدينية اليومية، فضلاً عن كون الحمام مكاناً للتواصل الاجتماعي والترفيه عن الضيوف.(Ciggaar,1996,p.264-265) وعندما وصل الفرنجة لأول مرة إلى بلاد الشام، سادت صورة نمطية بين السكان المسلمين الأصليين بأن الفرنجة يفتقرون إلى النظافة الأساسية وقد تحدى النبلاء الفرنجة هذه الصورة النمطية، حيث تكيّفوا مع المناخ والتقاليد الثقافية واستفادوا من الحمامات التي يرتادها المحليون (Ciggaar,1996,p.267) ومع ذلك يبدو أنهم ربما أدخلوا بعض التغييرات على ثقافة الحمامات، مثل تحدي الفصل الصارم بين الجنسين، وهو ما كان ليشكل صدمة للمسلمين وقد روى أبن منقذ قصصاً عن تجارب بين الفرنجة والمسلمين في الحمامات في فقرات نموذجية من أدب "الأدب"؛ حيث كانت تقدم الإرشاد والترفيه للقارئ، دون أن تلتزم بدقة بما يمكن اعتباره اليوم حقيقة، مقدمةً ثنائيات تهدف إلى تعليم القارئ.(بن منقذ،1987،ص149-150) لقد أصبح الحمام نقطة اتصال بين الفرنجة والمسلمين، حيث كان هناك تقارب اجتماعي، فضلاً عن التقارب المكاني، رغم أن الأمر لم يخلُ من بعض التكيف بالنسبة للمسلمين في ظل تحدي الفرنجة للعديد من أعراف هذا المكان

1.5-التقارب الوظيفي:

كان الرئيس يعمل حكماً للعدل، حيث يرأس "محكمة السريان" وهي استمرار لمحاكم سابقة تعود لما قبل وصول الفرنجة مُنحت محكمة السريان الولاية القضائية على كل من لم يخضع لولاية "قانون روما" أي المسيحيين اللاتينيين وفي بعض الأماكن التي كانت بها أسواق، استُبدلت محكمة السريان في نهاية المطاف بـ "محكمة الفندق" وهي محكمة سوق تختص بالمسائل التجارية والمدنية، وكان يديرها بشكل أساسي الفرنجة إلى جانب عدد قليل من السريان المحليين ، سمح الفرنجة للمسلمين بتولي شؤون عدالتهم الخاصة، باستثناء الحالات التي يكون فيها احتكاك بين المجموعتين، كما هو الحال في الأسواق ، أظهر الفرنجة نوعاً من التسامح إن لم يكن تقارباً واسعاً تجاه سكانهم، مما شجع سكاناً أكبر عدداً بكثير على إبداء الرغبة في إخضاع أنفسهم لحكم الفرنجة (ابن جبير،1984، ص317) عملوا كمترجمين فوريين فقاموا بدور الوسطاء بين السكان المسلمين والأسياد الفرنجة، وتفاوتت كمية القوة التي تمتعوا بها حسب مناصبهم، وفي القرى كانوا مسؤولين أيضاً عن استلام المنتجات الزراعية من الفلاحين وتلك التي تخص السيد مباشرة. أما الكتاب فكانوا في الغالب من المسلمين، وإن وجد بينهم أيضاً بعض اللاتينيين أو المسيحيين المحليين ممن يتقنون اللغات الفرنجية والعربية (Riley-Smith,2005,p.157) وكان الكتاب بمثابة موظفين مسؤولين عن تحصيل إيرادات القرية وعندما وصلت قافلة ابن جبير إلى عكا أبدى إعجابه بالموظفين المسيحيين الذين تعامل معهم والذين كانوا يتقنون العربية بطلاقة (عطية ،1980،ص208) ومن خلال هذه المناصب، شهد الفرنجة تقارباً محدوداً مع رعاياهم المسلمين، مما سمح لهم بالاحتفاظ بالهياكل الاجتماعية والإدارية لحكامهم السابقين ومع ذلك كان لدى معظم الفرنجة اتصال ضئيل بعامة السكان من الفلاحين المسلمين، حيث اختاروا الاستقرار بين المسيحيين المحليين، ووضعوا أنفسهم في قمة الهيكل الاجتماعي، مع إنزال الفلاحين المسلمين، وعندما تعلق الأمر بعقيدة رعاياهم، كان نهج القادة و رجال الدين في الولايات الصليبية غالباً هو التوافق التقاربي المحدود تجاه المسلمين؛ فقد سمحوا بتسامح محدود مع

الممارسات الدينية ، هذا وكانت عمليات التحول والمعمودية ممنوعة من أن تكون قسرية، ولذلك سُمح للرعايا المسلمين بالبقاء في الأراضي الفرنجية والحفاظ على دينهم.(Muldoon,1979,118-119) و وتشير الدراسات التاريخية سببين لذلك هما:

- **أولاً:** إذا سُمح للرعايا غير المسيحيين بالبقاء، فستكون هناك دائماً فرصة لتحولهم في المستقبل.
- **ثانياً:** وفر المسلمون عمالة كان السكان الفرنجة، الذين يمثلون دائماً أقلية عددية، في أمس الحاجة إليها، كانت المزايا الاقتصادية التي يقدمها العمال المسلمون تحظى بتقدير كبير، وكان من الأفضل بقاء الرعايا المسلمين في أراضيهم يعملون.

وعندما كانت تحدث حالات تحول ديني، سواء بين الفرنجة أو المسلمين، فإنها غالباً ما كانت نتيجة للظروف وليس عن قناعة حقيقية، فعندما واجه الفرنجة مجاعة شديدة، فر البعض إلى الأناضول وارتدوا عن دينهم، منقذين أجسادهم (على الرغم من أنهم، وفقاً لكتاب "رحلة الحجاج"، قد أهلكوا أرواحهم) كما وجدت حالات تحول بين المسيحيين والمسلمين عندما واجهوا الخطر، حيث كانوا المرتدين بعد أسرهم في المعارك لتجنب القتل أو الاستعباد من قبل آسريهم، ومع ذلك كانت هذه التحولات غالباً غير دائمة، فبمجرد زوال الخطر، كان المتحولون حديثاً يعودون إلى إيمانهم الأصلي (Nicholson,2001 ,p.132) وعندما غزا الفرنجة عكا، عرضوا تحرير كل من يرتد عن دينه ، ففعل ذلك خوفاً على حياتهم، ولكن بمجرد إطلاق سراحهم ارتدوا وعادوا إلى صلاح الدين ، وبما أن عقيدة كل مجموعة كانت من الأجزاء الرئيسية لهويتها الجماعية الشاملة، فقد كان الأمر يتطلب غالباً ظروفاً قاسية لتغيير ذلك؛ حيث واجه أعضاء المجموعة نزع الشرعية والطرد من مجموعتهم إذا ما ارتدوا ، ولم يكن بإمكان الأشخاص الدخول الكامل في هوية المجموعة "الأخرى" إلا من خلال التحول الديني، فقد كانت هويتهم الدينية بمثابة إحدى أهم هوياتهم المركزية، وأثرت في الكثير من مواقفهم وسلوكياتهم تجاه الآخرين، ومن خلال التحول الديني فقط، كان المرء قادراً على الانضمام إلى المجتمع الفرنجي (Bar-Tal,2013,p.58) كعضو كامل في المجموعة، وتوجد بالفعل سجلات لعدد محدود من الأشخاص الذين اختاروا التحول بمحض إرادتهم، وبينما كان أولئك الذين ينتمون لنفس العقيدة والذين سجلوا هذه الحالات ينتقدون المرتدين بشدة، (ابن جبير ،1984،ص323) ويشير المقدسي حادثة مماثلة في كتاباته عن المجتمع في نابلس حيث لم يسجل سوى تحول رجل واحد، دخل الكنيسة وأصبح بعدها من "أهل النار" ومن خلال هذه التحولات، أصبح هؤلاء الأعضاء من الأديان الأخرى أعضاء كاملين في المجموعة ، إن الفرنجة الذين قدموا إلى الشرق استقروا هناك لحماية المواقع المقدسة في الأرض المقدسة، وبالتالي كانوا غالباً شديدي الحمائية لتلك المواقع، كما سعى المسلمون أيضاً للسيطرة على الأماكن المقدسة، لقد تركزت كل من الحروب الصليبية على جعل القدس والمواقع المقدسة الأخرى ملكية حصرية لعقيدتهم، وأدى ذلك غالباً إلى توتر أو عنف صريح (Riley-Smith,2005,p.123) ففي عام 1188 هاجم صلاح الدين مدينة أنطرسوس، وهدم سور المدينة، وأحرقها، وخاصة الكنيسة التي كانت موقع حج هاماً للمسيحيين، وكذلك كنيسة في مدينة اللد الفلسطينية عام 1191. وفي عام 1183/1182 هاجم الفرنجة داريا وخططوا لهدم مسجدها، وتفادوا ذلك عندما هدد المسلمون بتدمير كنائس متعددة رداً على ذلك. كما كانت جبل الهيكل وجبل الزيتون أماكن تقاتل فيها المسلمون والمسيحيون من أجل السيطرة الحصرية وقد أدى الصراع على هذه المواقع إلى تباعد ديني وعداء. (ابن جبير،1984،ص285) ومع ذلك ومن المثير للاهتمام أن السيطرة على المساحات المقدسة لم تكن تؤدي دائماً إلى التباعد؛ فبعض المواقع المقدسة للمسلمين والمسيحيين ألهمت تقارباً مكانياً سلمياً بدلاً من العنف، وإن لم يؤدِّ ذلك عموماً إلى تفاهم فكري أكبر أو تقارب آخر وكانت إحدى طرق حدوث ذلك هي سماح الفرنجة لبعض المساجد بالبقاء قيد الاستخدام، أو الاحتفاظ بجزء من المواقع للعبادة الإسلامية على الرغم من كونها أصبحت الآن مواقع مسيحية ويشير ابن جبير أنه تمكن في صور من التعبد في مسجد ظل في أيدي المسلمين كما يروي أن جزءاً صغيراً من مسجد يحتوي على ضريح النبي صالح في عكا و ظل مسجداً، بينما حُوّل بقيته إلى كنيسة الصليب المقدس المسيحية (ابن جبير،1984،ص318) ومثلما فعلت الطوائف العسكرية سمح الفرنجة بحدوث تقارب مكاني محدود داخل مواقع مقدسة معينة. وفي حالات أخرى كانت المساحات المقدسة بما في ذلك الأضرحة أو القبور، مشتركة، وإن كانت إحدى العقيدتين تعمل غالباً كحارس للبوابة وفرت بعض هذه المواقع تقارباً مكانياً بسيطاً، بينما شهدت أخرى تقارباً غير متكافئ حيث كانت الشعائر مشتركة، مع قيادة أحد الجانبين ومشاركة الآخر، وكان بإمكان المسيحيين زيارة كاتدرائية سبسطية الفرنجية وضريح يوحنا المعمدان فيها مجاناً، بينما كان المسلمون يدخلون مقابل "هدية" ومُنح الدخول المجاني للمسلمين في كنيسة المهد في بيت لحم وفي قبة الصخرة في القدس والخليل، كان المسلمون سدنة للقبور التي يُعتقد أنها تخص إبراهيم وسارة، وإسحاق، ويعقوب وكان المسلمون يقدمون المعلومات للحجاج الذين يدفعون رسوماً، كما عُرف عن المسلمين تجمعهم في كنيسة القيامة في القدس لمشاهدة معجزة إيقاد نار الفصح، وقد

شهد هذا التقارب المكاني وغير المتكافئ منح المسيحيين والمسلمين الأولوية للتقارب السلمي والوصول إلى هذه المواقع بدلاً من الصراع المستمر والسيطرة الحصرية (Riley-Smith,2005,p.55-56).

1.6 -المحاكم:

أُنشئت المحاكم للتعامل مع النزاعات الحتمية التي كانت تنشأ ، وفي هذه المحاكم(Richard,2003,p.127-128)، كما هو الحال في الطبقات الاجتماعية الأوسع للمجتمع، وفرت الهوية الدينية المعايير التي تم على أساسها التقسيم الطبقي؛ حيث وُضع المسيحيون اللاتينيون في قمة الهرم، والمسيحيون السريان في مرتبة أدنى قليلاً، بينما وقع اليهود والمسلمون في أسفل السلم الاجتماعي ومرة أخرى، وضع الفرنجة المسيحيين غير اللاتينيين خارج هوية مجموعتهم، وكان التجار يتعاملون مع "محكمة السوق" وهي المحكمة التي مُنحت الولاية القضائية على جميع المسائل التجارية، وكذلك على جميع المسائل المدنية والجنائية المتعلقة بغير الفرنجة داخل المدينة، باستثناء المسائل التي تقع ضمن اختصاص "المحكمة العليا" (Riley-Smith,2005,p15) ووُضع المسلمون واليهود في وضع قانوني أدنى لافتقارهم إلى أي تمثيل في هيئة المحلفين؛ حيث كان يرأس المحكمة ستة محلفين:

- أربعة من السريان المحليين.
- اثنان من الفرنجة مع وجود "بايلي" (فارس أو مواطن حر) يترأسهم (Richard,2003,p.139).

ورغم أن المصادر محدودة يبدو أن هذه المحكمة في عكا، وربما في أماكن أخرى، حلت في النهاية محل "محكمة السريان" والتي كانت تحكم السكان المسلمين ويرأسها "رئيس" مسلم بشكل عام يبدو أن الفرنجة قاوموا الانخراط في الكثير من التوافق الفكري التقاربي مع المسلمين وقد اقترح المؤرخون بضعة أسباب لهذا النقص في التفاعل الفكري وهي:

- كان عدد المثقفين الذين وصلوا مع الصليبيين قليلاً، بينما غادر معظم المثقفين المسلمين الولايات الصليبية عند غزوها، أما من بقي منهم، فقد فصل عوائق لغوية بين الكثير منهم.
- أدت الهوية الدينية التي امتلكها كلا الجانبين إلى استخفاف كل طرف بالآخر في كثير من الأحيان، واعتباره أقل تقدماً ثقافياً أو دينياً منه ومع ذلك، كان الطب هو المجال الوحيد الذي وجد فيه الفرنجة بعض الأرضية الفكرية المشتركة مع نظرائهم المسلمين. (Riley-Smith,2005,p7)

2- تبادل الخبرات والمعرفة

2.1- اللغة العربية:

وبحلول الحملة الصليبية الثانية (1147-1149) أدرك الفرنجة أهمية تعلم اللغة العربية، أو توظيف من يتقنها، وتشير الدراسات أن عدداً من الفرنجة تعلموا العربية أكثر مما أقر به المؤرخون السابقون، على الرغم من المضامين الأصلية لخطاب أوربان بأن عداء الصليبيين تجاه المسلمين لن يسمح لهم باكتساب أي معرفة بالثقافة الإسلامية، ومن خلال تعلم التحدث باللغة العربية، أعرب بعض الحكام والنبلاء الفرنجة عن استعدادهم لخوض توافق تقاربي والتفاوض مع المسلمين، والدخول في حيز مادي قريب فضلاً عن ذلك البدء في مشاركة حيز ثقافي محدود (عطية ،1980،ص203) ، ويذكر المؤرخ الصوري خلال حصار دمشق أنه تم اختيار مبعوث فرنجي للتفاوض مع الأتابك أنر "بسبب إلمامه بلغة الترك" كما يذكر أبن شداد أن رينالد، صاحب صيدا والشقيف (1171-1200)، كان يعرف العربية، وأكثر من ذلك، كان مطلعاً على بعض مجموعات الحديث (الرسول محمد ص) والتاريخ الإسلامي، ومن خلال تعلم اللغة العربية، بالإضافة إلى بعض تواريخ وقصص الإسلام، بدأ الفرنجة وبدرجة أكبر من الصليبيين الذين قدموا لفترات قصيرة، في التقارب بشكل محدود نحو الثقافة الإسلامية، وهي المعرفة التي ساعدتهم في مفاوضاتهم وتفاعلاتهم،(ابن شداد ،1978،ص90) وقد كانت درجة ونوع التفاعل والتوافق التقاربي أو التباعدي الذي حدث خارج الإطار العسكري بين السكان الأوروبيين المستوطنين والسكان الأصليين في بلاد الشام موضع خلاف كبير بين المؤرخين افترض مؤرخون عن وجود مجتمع متكامل للغاية حيث استوعب الفرنجة أنفسهم في حياة الشرق، مما خلق هوية فرنجية سورية جديدة، وفشل هذا النموذج الذي دعمه المؤرخون الفرنسيون، في التمييز بين السكان الأصليين الذين كانوا مسيحيين وأولئك الذين كانوا من أديان أخرى مثل المسلمين أو اليهود

(William,1943,p.155) كان هذا فشلاً ذريعاً لأن المعتقدات الدينية كانت أساسية لهوية المجتمعات في العصور الوسطى، كما أن الهوية الدينية للسكان الأصليين أثرت بشكل كبير على المناطق الجغرافية التي اختار الفرنجة الاستقرار فيها، وبعد فترة من الزمن تحدى مؤرخون جدد نموذج الاستيعاب هذا، وكان آر سي سمايل وجوشوا براور من أوائل الذين اقترحوا أن استيطان الفرنجة بين السكان الأصليين كان في الواقع محدوداً (Ellenblum,2002,p.285) مع بقاء الفرنجة بشكل أساسي كمجتمع حضري سكاني، يتجمعون في المدن، مع استيطان ريفي محدود فقط، وبينما تبنى الفرنجة الطعام واللباس وغير ذلك من أشكال الاستيعاب المادي للشرق الأدنى، إلا أن هذه العناصر لم تكن سوى مظاهر خارجية، ولم تكن تشير إلى استيعاب ثقافي أعمق،(Prawer,1972,p.66) ويشير الروايات إلى أن الحالات التي تُستخدم غالباً كدليل على وجود صلة أعمق تثبت في أفضل الأحوال وجود صلة كانت عبارة عن تواصل سطحي، وغالباً ما كانت تقتصر على فئة صغيرة من السكان وليس الجميع، ووفقاً له فإن هذه المدرسة الفكرية الثانية التي تعتبر أن الميزة الأساسية لتنظيم الولايات اللاتينية كانت فرض أرستقراطية عسكرية صغيرة عددياً على كتلة السكان الأصليين، حيث استغلت هذه الطبقة الحاكمة الشعوب الخاضعة لها اقتصادياً عن طريق ترتيبات اجتماعية وجدتها قائمة بالفعل وكانت شبيهة بتلك التي عرفتها في أوروبا، ولكن بخلاف هذا الفرض الاقتصادي، (Smail,2005,p.44) يشير هذا الرأي إلى أن الفرنجة لم يؤثروا بشكل كبير على حياة السكان الأصليين، بل انعزلوا بأنفسهم داخل المدن الكبيرة والمحمية في الشرق، وفي الآونة الأخيرة عاد المؤرخون إلى اقتراح نموذج استقرار أكثر تكاملاً، مع توسيع الفرنجة لمواقع إقامتهم في المناطق الريفية، ولكن مع التمييز بين الخلفيات العرقية والدينية للسكان الأصليين الذين استقروا بينهم(Prawer,1972,p.318)

2.2- لغة الإيماءات:

ففي مرحلة التقارب الأخر هو اللغة فـ نرى إن الفرنجة ذهبوا إلى أبعد مما ذهب إليه الصليبيون في خلق ممارسات توافقية تقاربية للمساعدة في جسر بعض هذه الانقسامات من أجل الانخراط بشكل أكبر(Riley-Smith, 2005,p.100) وبشكل أكثر فعالية في المفاوضات والدبلوماسية، وبينما كانت اللغة واحدة من أكبر العقبات التي يجب تجاوزها، فإن الإيماءات والرموز كانت تختلف اختلافاً كبيراً بين الثقافات، وكان لابد من تطوير لغة مشتركة من الإيماءات، وبينما طور الصليبيون هذا الأمر إلى حد محدود، كان الفرنجة أكثر مهارة بكثير في هذا النوع من التوافق التقاربي، مما أدى هذا إلى فرص أكبر لنجاح الدبلوماسية، وكان الدبلوماسيون والمبعوثون بحاجة إلى مهارة في فهم ثقافة ودين الأشخاص الذين يتواصلون معهم، وفي اللغة والإيماءات المستخدمة للتعبير عن أفكارهم واحتياجاتهم في المفاوضات، وأدت هذه الحاجة إلى توافق تقاربي أكبر مع المسلمين من قبل الدبلوماسيين والحكام مقارنة بغيرهم من الجنود، (Friedman,2002 ,p.32-34) وبالنسبة للمبعوثين الذين عملوا بين المسيحيين والمسلمين ، كانت بعض الإيماءات متماثلة ويمكن نقلها بسهولة عبر الفجوة الثقافية، فـ على سبيل المثال كان الانحناء والركوع والسجود يتم وفقاً لرتبة الشخص كعلامة على التواضع ، في حين لم تكن لإيماءات أخرى نفس المعنى الثقافي وكان لا بد من تحديد معانٍ جديدة لها، ومن الأمثلة على ذلك الطريقة التي يتم بها الاقتراب من الحاكم، ففي الشرق كان الحاكم يُرفع فوق رعاياه، وكان على من يقترب منه أن يقف في مستوى أدنى أو ينحني للأمام، وكان على يد الرعية أن تمتد نحو الحاكم ، ولكن دون حدوث أي تلامس جسدي؛ بل كان يعتبر من الإهانة وضع رسالة مباشرة في يد الملك، أما في أوروبا فقد كان مثل هذا السلوك مقبولاً تماماً، وكان تشبيك اليد اليمنى في أوروبا إيماءة حاسمة لإبرام معاهدة ويمثل وضع قوة المرء في يد الآخر،(Friedman,2002,p.40-42) أما في بلاد الشام فقد كانت المعاهدة تُبرم من خلال الانحناء والركوع ومن خلال تقديم الهدايا، وكان المبعوث عادةً يعمل كوكيل عن الحاكم، وبحلول وقت الحملة الصليبية الثالثة حدث تقارب بين كلا المجموعتين وأصبح المصافحة باليد اليمنى إيماءة مقبولة متبادلاً لإبرام المعاهدات،(Richard ,2003,p.176) ففي عام1192م انخرط صلاح الدين وريتشارد في مفاوضات مستمرة لترتيب هدنة (معاهدة سلام) حتى يتمكن ريتشارد من العودة إلى أوروبا، وعند ختام هذه المفاوضات أرسل ريتشارد الذي كان مريضاً مبعوثاً إلى صلاح الدين مادا يده، واستجاب صلاح الدين في المقابل بالموافقة أيضاً على مد يده لتأكيد المعاهدة، وقد عززت هذه الإيماءات المشتركة قدرة الفرنجة والمسلمين على الانخراط في توافق تقاربي، ولكن كان من الممكن استخدامها أيضاً بطريقة تباعدية لفرض القوة، وكان من الممكن أن تؤدي إلى مواقف من الحرج الدبلوماسي، فعندما جاء الملك عموري لمساعدة شاور في مصر عام 1167م أحضر المبعوث الفرنجي هيو القيساري إلى الخليفة العاضد مع مقترح معاهدة، وعندما قُبل الاقتراح قدم الخليفة يداً مغطاة بقفاز، لكن هيو أصر على أن يقدم يداً عارية، و يشير وليم الصوري ذلك قائلاً "أخيراً وبممانعة شديدة، وكأن الأمر ينقص من عظمته، ولكن مع ابتسامة خفيفة أزعجت المصريين كثيراً، وضع يده المكشوفة في يد هيو"، وبهذه الإيماءة البسيطة كان هيو يؤكد على وضع القوة المسيحية (William,1943 ,p.231) وبما أن

هذه الإيماءة لم تكن قد أصبحت بعد ذات معنى مشترك، فقد كان هيو يفرض الخليفة بشروط أوروبية لوضع نفسه في أيدي عدوه، فضلاً عن الإشارة إلى علامة الاستسلام(Friedman,2002,p.38) أما من الجانب الإسلامي، فكان التلامس الجسدي مع الخليفة يُعتبر علامة من علامات الفضل، ومن خلال فرض التلامس الجسدي كان هيو يعبر عن سلوك تقاربي وتباعدي في آن واحد ، وذلك بإبرام المعاهدة ولكن بشروط تعبر عن موقف القوة المسيحية، وكان الحاجز الرئيسي أمام الدبلوماسية التقاربية، وكذلك التجارة هو الافتقار إلى لغة مشتركة (Riley-Smith,2005,p.210).

2.3-الاحتفالات الدينية المشتركة:

أما على المستوى الشعبي فقد اجتمع الفرنجة والمسلمون في تقارب متكافئ خلال الاحتفالات الموسمية، حيث تزامنت الاحتفالات الإسلامية والمسيحية مع بعضها البعض؛ فعندما احتفل الفرنجة بعيد الفصح احتفل المسلمون بعيد رأس السنة (النوروز) وفي عيد العنصرة احتفل المسلمون بـ "العنصرة" (موسم الحر)، وحل عيد الميلاد في موسم البرد، وتزامن موسم الأمطار مع عيد القديسة بربارة (4 ديسمبر) وحتى عندما كان الصليبيون في حالة حرب مع المسلمين، استمرت هذه الاحتفالات بين عامة الناس (المقدسي،1991، ص166)

الطوائف الدينية:

كان "التركمان" مجموعة متميزة نشأت جزئياً على الأقل من الزواج المختلط بين الفرنجة والسكان الأصليين والاسم مشتق من اليونانية ويعني "أبناء الترك" ويبدو أنهم كانوا رماة وخيالة خفافاً استخدموا تقنيات المقاتلين الأتراك، وبينما كان بعضهم من المسلمين الذين تحولوا إلى المسيحية، كان الكثير منهم أبناء لزيجات مختلطة عرقياً، عادة من أب مسيحي وأم محلية ويعرف ابن منقذ "التركمان" ببساطة بأنهم رماة السهام لـ...((الفرنجة بينما يصفهم كتاب "رحلة الحجاج" بأنهم قوات مساعدة محلية وقد استخدم كل من "الاسبتارية" و"الداوية" هؤلاء "التركمان" الذين شكلوا جزءاً كبيراً من قوات الطوائف العسكرية لكنهم لم يكونوا "إخوة" رسميين في تلك الطوائف(ابن منقذ،1987،ص61)كان يقودهم "تركمان- لير" أما بالنسبة للداوية بدأ هذا المنصب كمرتبة تابعة تحت إمرة "المارشال"، أما بالنسبة للاسبتارية فوفقاً لسجلات الجمعية العمومية عام 1330، كان منصب "التركمان-لير" أحد كبار المسؤولين وبالنسبة للتركمان وأولئك الذين عملوا معهم، لعبت هويتهم العرقية دوراً أقل شأناً من هويتهم الدينية؛ فبمجرد تحولهم تم إدخالهم في مجتمع المسيحية، وأصبح ولاؤهم الأساسي لأولئك الذين يشاركونهم العقيدة (Riley-Smith,2005,p.76).

2.4- أنماط التفاعل اليومي:

2.4.1—الطعام:

تبنى الفرنجة جوانب كثيرة من الثقافة المادية للمجتمع الذي وجدوه في الشرق، وهو قرار كان ذا طبيعة عملية إلى حد كبير استجابة للمناخ الجديد والجغرافيا الطبيعية لبلاد الشام ، وكان هذا التوافق تغييراً في السلوك الظاهري للفرنجة، لكنه لم يؤدِّ بالضرورة إلى موقف أكثر تقارباً بشكل عام تجاه المسلمين ، وعندما وصل المستوطنون لأول مرة انتقلوا إلى المنازل التي غزوها، وأكلوا الكثير من الأطعمة المحلية المتاحة، بما في ذلك الفول والعدس والبازلاء(نادر،2007،ص245) ويروي ابن منقذ قصة رجل فرنجي دعا رجلاً مسلماً لتناول العشاء، وعندما تردد المسلم في القبول، طمأنه الفرنجي بأنه يوظف طباخاً مصرياً يتبع العادات الإسلامية، لكي يتمكن الرجل من الأكل دون خوف من تناول أطعمة محرمة في دينه (ابن منقذ،1987،ص153).

2.4.2 -الصيد:

كان الفرنجة منخرطين في حرب مع المسلمين في كثير من الأحيان، وكان الفرنجة يعتبرون القوى المسلمة المحيطة بهم أعداءً، لكن هوية الفروسية ومواقف النبلاء من الفرنجة والمسلمين جعلتهم يعطون الأولوية أحياناً للعلاقات الأفقية مع زملائهم من النخبة على حساب التضامن مع من يشاركونهم العقيدة وكانت إحدى طرق تواصلهم الاجتماعي هي الصيد معاً؛ (Friedman,2002,p.45) حيث خصص ابن منقذ قسماً كاملاً من كتابه لسرد وقائع الصيد، بما في ذلك الصيد مع النبلاء الفرنجة. وفي إحدى المرات، دعا الملك فولي (فولك) ملك القدس (1131-1143) الأمير معين الدين للصيد في عكا، وهناك التقى الأمير برجل جنوي كان معه باز صيد

وكلب فأعجب الأمير بالحيوانين وطلب من الملك أن يهبهما له - وهو الطلب الذي استُجيب له على الأصول (بن منقذ،1987،ص205-206) وبينما لم يتخلَّ الفرنجة عن ضرورة الحرب المقدسة، أو ضرورة حماية الولايات اللاتينية، إلا أنهم عندما لم يكونوا منخرطين مباشرة في الحرب، كانوا يقدمون هويتهم كفرسان وعلاقاتهم الشخصية مع المسلمين في هيكل أفقي على المعتقدات الإلزامية لدينهم التي كانت تثبط مثل هذه التفاعلات الودية ،كانت هناك مجموعة أخرى في بلاد الشام تمتلك هوية تتحدى أولوية الهوية الدينية (أبو العافية،1994،ص4).

2.4.3- الملابس:

سلطت ملابس بلاد الشام الضوء على الطرق التي تقارب بها الفرنجة مع بعض الملحقات المادية للشرق، مع الحفاظ على هويات تباعدية بشكل عام، وهي هويات استندت جزئياً على الأقل إلى هويتهم الدينية الجماعية، واختار العديد من المستوطنين الفرنجة ارتداء الملابس الفضفاضة الشرقية، كونها ملابس أكثر عملية في حرارة بيئتهم الجديدة، كما انتقلت الأزياء التي تفضلها النساء المسلمات إلى النساء الفرنجيات (Kedar,1984,p.322). ومع ذلك وبينما تبنى الفرنجة أنماط اللباس الإسلامية، فقد منعوا بشدة أي إجراء عكسي، وبذلك تباعدوا عن رعاياهم بصفتهم النخبة السياسية والاجتماعية الجديدة وقد سُنَّ قانون في مجمع نابلس عام 1120 يحظر على المسلمين ارتداء الملابس الغربية، وعُقد هذا المجمع رداً على الهزيمة الساحقة لجيش الأمير روجر الأنطاكي (1113-1119) على يد الأمير الأرتقي في حلب، إيلغازي (حكم 1107-1122 (Asbridge,2010,p.177-178) وكما أكد الفرنجة هيمنتهم من خلال فرض الملابس التي يمكن لرعاياهم ارتداؤها، فقد حافظوا هم أنفسهم أيضاً على بعض التباعد المادي الظاهري؛ فبالرغم من تبنيهم لملابس الشرق، ظلوا متميزين بصرياً عن المسلمين ، فبينما كان رجال بلاد الشام يطلقون لحاهم، كان الصليبيون والمستوطنون من أوروبا الغربية يميلون إلى حلقها. وقد سجل حاج مجهول في الأرض المقدسة في وقت ما قبل عام 1187 عن الفرنجة قائلاً: "إنهم رجال حرب، متمرسون في السلاح، حاسرو الرؤوس، وهم الوحيدون من بين كل هذه الأجناس الذين يحلقون اللحية". (ابن شداد،1978،ص173) وشملت الاستثناءات من هذه القاعدة الحجاج الذين كانوا يتركون لحاهم تطول أثناء سفرهم، مما أدى إلى مقتل بعضهم بنيران صديقة عندما غزا الصليبيون أنطاكية ، كما احتفظ الداوية (فرسان الهيكل) بلحاهم كجزء من لوائح نظامهم، مما جعلهم بارزين للغاية في المعركة كأعضاء في طائفة عسكرية، وجعلهم أكثر عرضة للخطر عند وقوعهم في الأسر، ولكنها جعلتهم أيضاً أهدافاً محتملة للنيران الصديقة في المعركة، عند الاشتباه في كونهم مسلمين، لقد تقارب الفرنجة مع عناصر معينة من الحياة في الشرق، غالباً بدافع الضرورة لكن أهمية هويتهم الفرنجية، سياسياً ودينياً، دفعتهم إلى وضع سياسات وتقاليد أبقتهم منفصلين عن المسلمين، وعلى الرغم من تبني بعض المظاهر المادية لثقافة الشرق، فقد احتفظ الفرنجة بهوية منفصلة عن المسلمين (عبده،2001،ص164).

2.4.4- الزواج:

تعتبر المصاهرة بين المسيحيين اللاتين والمسلمين المرتدين أحد أبرز تجليات القبول الاجتماعي المتبادل في ذلك السياق التاريخي، حيث ساهم هذا الامتزاج الأسري في نقل عناصر مادية من نمط الحياة الشرقية إلى المجتمع اللاتيني، وهو ما يفسر التباين الثقافي الذي رصده المؤرخون بين فئة المستوطنين القدامى الذين اندمجت عائلاتهم عبر أجيال متعاقبة في البيئة السورية، وبين المهاجرين الجدد الذين افتقروا إلى الخبرة الكافية بالعادات والتقاليد الإسلامية السائدة في بلاد الشام (Asbridge,2010,p.177-178) فكان الزواج المختلط بين الفرنجة والمسيحيين المحليين (اليونانيين والأرمن) شائعاً نسبياً، إلا أن المصادر أقل وضوحاً بشأن معدل الزواج المختلط بين الفرنجة والمسلمين، رغم وقوع بعضه خاصة بين الرجال الفرنجة والنساء المسلمات اللاتي اعتنق الديانة المسيحية وظلت الهوية الدينية لكلا الطرفين مهمة، وتشير المصادر إلى أن التحول الديني كان عاملاً جوهرياً في الزواج المختلط، لأنه أدخل الزوج في واحدة من أهم الهويات الجماعية لشريكه ويبدو أن الزواج المختلط كان أكثر شيوعاً في المصادر المبكرة (Setton,1969,p.46-47) ولكنه أصبح أكثر تقييداً بحلول القرن الثالث عشر (1059-1127) تقول الدراسات ان فوشيه الشارتري وهو الكاهن الفرنسي لـ بالدوين الأول، مشجعاً الغربيين على المجيء والاستيطان، واصفاً المستوطنين الموجودين بالفعل في بلاد الشام "لأننا نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين... البعض اتخذ زوجات ليس فقط من شعبهن، بل من السريانيات أو الأرمنيات أو حتى الساراسينيات (المسلمات) اللاتي نلن نعمة المعمودية" إلى أن المستوطنين الأوائل كانوا يتقبلون مثل هذه الزيجات كان مجمع نابلس عام 1120 أكثر إدانة لاحتمالية الزواج المختلط فبعد الهزيمة الفرنجية في حقل الدم عام 1119، حظر المجمع أنواعاً

عديدة من التآخي مع المسلمين (Brundage,1995,p.263). ومع كلا المصدرين، من الصعب معرفة مدى كونهما انعكاساً لتجربة فعلية، أو مدى كونهما حاوله لتشجيع أو تثبيط ممارسة قد تكون أو لا تكون قد حدثت بالفعل بأعداد كبيرة 236-Muldoon,1979,p.120) وفي العقود الأولى من الحروب الصليبية عكس هذا الموقف الديني إمكانية التقارب والاندماج في هوية المجموعة للزوج بين الفرنجة والمسلمين من خلال الزواج المختلط، كما تروي الدراسات ومع ذلك إنه وبحلول منتصف القرن الثالث عشر، يبدو أن هذا الموقف قد تراجع، حيث وضع الفرنجة تأكيداً أكثر تباعداً في علاقاتهم مع المسلمين، مؤكدين على مكانتهم المتفوقة في الولايات الصليبية (Brundage,1995,p.236). وتوفر المصادر الإسلامية أيضاً أمثلة قليلة على الزواج بين المسلمين والمسيحيين، ومع ذلك و يشير ابن منقذ بضع قصص عن الزواج المختلط؛ وفي رواياته تفشل هذه الزيجات لأن المسيحيين يرفضون التقارب التام، متمسكين بـ هويتهم المسيحية الفرنجية ففي إحدى القصص، تزوجت خادمة فرنجية أسيرة وجميلة من أحد الأمراء، وأنجبت منه ابناً أصبح سيداً بعد وفاة الأمير ورغم مكانتها وثروتها عادت المرأة إلى الفرنجة لتتزوج من إسكافي، مفضلة مسيحياً وضيعاً على مسلم ذي شأن وفي قصة أخرى، كان لامرأة أسيرة ابنٌ تحول إلى الإسلام ومُنح وظيفة "نحات حجارة" وزوجة مسلمة ورعة وأنجب منها ابنين، ثم أخذهما معه وعاد إلى لموطنه ، مرتداً إلى المسيحية مرة أخرى وبينما يبدو أن الزواج المختلط قد حدث، فإن نجاح مثل هذه الزيجات كان يعتمد غالباً على التحول الصادق لأحد الطرفين إلى دين الآخر، وهو أمر لم يكن مضموناً ، وعندما كانت تحدث التحولات، يبدو أنه كان هناك غالباً عدم ثقة في صدق هذا التحول، وما إذا كان سيستمر أم لا (ابن منقذ،1987،ص142-143).

2.5- المؤسسات والتوافق الثقافي والعلمي:

2.5.1- -نقل المعرفة الطبية:

بدأت المعرفة الطبية العربية في ذلك الوقت، من خلال الأدبيات الطبية العربية واليونانية، في شق طريقها إلى أوروبا عبر إسبانيا وصقلية (مراكز التعلم والترجمة)، وكذلك من خلال مراكز الترجمة في الشرق اللاتيني، وبينما لا تزال المصادر غير واضحة بشأن مدى تواصل الأطباء مع بعضهم البعض، فمن الواضح أن أطباء "الاسبتارية" فحسب لم يتبنوا ممارسات وعادات مشتركة، بل فعل ذلك أيضاً أطباء فرنجة آخرون، وفي بعض الحالات تبنوا علاجات مشتركة مع زملائهم من الأطباء المسلمين، مما يشير إلى حدوث نوع من التواصل والتوافق الفكري (Edgington,1996,p.189-191). إن هوية المجموعة التي وفرتها الممارسة الطبية شكلت تحدياً مباشراً للهوية الدينية، مما قلل من مركزيتها وسمح في هذه الحالة بتبادل أكثر اتساعاً للمعرفة الفكرية ،فمنذ القرن الحادي عشر فصاعداً، بدأت النصوص اليونانية والعربية تشق طريقها إلى وعي الأوروبيين الغربيين، مما أدى إلى زيادة الاهتمام بعلاج المرضى بدلاً من مجرد رعايتهم ، كما ورث الفرنجة مراكز ترجمة في طرابلس وأنطاكية، ومن خلال هذه المراكز، أصبحت المعرفة الطبية العربية متاحة بشكل متزايد للأطباء الفرنجة. وقد قدم العديد من العلماء الأوروبيين خصيصاً لاستخدام هذه المرافق؛ فعلى سبيل المثال، كان ستيفن البيزي أحد هؤلاء العلماء الذين قدموا إلى أنطاكية بين عامي 1126 و1130 وترجم كتاب "كتاب الصناعة الطبية" (المعروف بالكتاب الملكي) لعلي بن العباس المجوسي إلى اللغة اللاتينية تحت اسم (الكامل في صناعي الطب) ومن خلال هذه النصوص، أُعيد تقديم المعرفة الطبية التي فُقدت في العالم الأوروبي، مما سمح للأطباء الفرنجة بالبناء على قاعدتهم المعرفية في الطب الكلاسيكي، إن عمق ومدى المعرفة التي كان يمتلكها المتخصصون الطبيون المسلمون يظهر بوضوح من خلال الاختبارات التي كان يُطلب منهم اجتيازها لممارسة الطب، فمنذ القرن الحادي عشر، كانت معظم المستشفيات الإسلامية تطلب من الأطباء الحصول على ترخيص وكان يُنظر إلى الطب كمهنة تخضع لرقابة "المحتسب"، وهو مسؤول يُعين للإشراف على الإدارة العملية والأخلاقية للأسواق الإسلامية(البابا،1981،ص184). وقد حُددت لوائح المحتسب في "كتب الحسبة"، التي وضعت أفضل الممارسات والمعرفة المتوقعة من الممارسين الطبيين. وشملت اللوائح مجموعة متنوعة من المتخصصين الطبيين، بما في ذلك الصيادلة، وصانعي الأشربة، والفاصدين (ممارسي الحجامة) والحجامين؛ فضلاً عن الأطباء العامين، وأطباء العيون، ومجبري العظام والجراحين وقد تطلب الدليل اختبار جميع الأطباء في كتاب حنين بن إسحاق "محنة الطبيب" لحنين بن إسحاق، وكتاب جالينوس "محنة الطبيب" وذلك لضمان استيفائهم للحد الأدنى من الأمانة العلمية و المهارة العالية (القرشي ،1988،ص244-245) كما كان على أطباء العيون أن يُختبروا في كتاب حنين بن إسحاق "العشر مقالات في العين" وكان على مجبري العظام معرفة المقالة السادسة من كتاب "الكُنّاش" المنسوب إلى بولس الأجنبي بينما توجب على الجراحين الإلمام بكتاب جالينوس "قاطاجانس" والكتاب

الذي ألفه الزهراوي في الجراحة، ولم يكن يُسمح بالممارسة إلا لأولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا للمحتسب بشكل كافٍ أن لديهم معرفة بهذه الكتب، بالإضافة إلى معرفة عملية بتخصصهم المختار (أبن أبي أصيبعة ،1965،ص215).

2.5.2- ترخيص الأطباء الفرنجة:

قبل الحملات الصليبية لم يكن لدى الأوروبيين مثل هذه الممارسات المتعلقة بالترخيص، ولكن بحلول أربعينيات القرن الثاني عشر بدأ ترخيص الأطباء الفرنجة، وبحلول القرنين الثالث عشر والرابع عشر أصبح ذلك ممارسة شائعة وكانت هذه الممارسة على الأرجح مقتبسة من المسلمين، الذين فرضوا منذ عام 949 ترخيص جميع الأطباء وفي "كتاب أحكام محكمة البرجوازية" الصادر بين عامي 1240 -1244م كانت ممارسة الترخيص الفرنجية مشابهة لتلك الخاصة بالأطباء المسلمين؛ حيث كان لزاماً على جميع الأطباء، من أي دين، القادمين من خارج المملكة أن يختبرهم أطباء محليون والأسقف للتأكد من امتلاكهم المعرفة النظرية والعملية اللازمة لممارسة الطب بأمان وبمجرد حصول الأطباء على الترخيص، كان يشرف عليهم مسؤول يسمى "محتسب" ويبدو أن هذا المنصب كان اقتباساً لـ دور المحتسب المسلم وفي ممارسة الترخيص(ابن أبي أصيبعة،1965،ص215-218) وهذه يمكن القول إن الفرنجة كانوا يدمجون الممارسات الإسلامية في مهنتهم الطبية الخاصة ، وعادةً ما كان المتخصصون الطبيون من أديان مختلفة يعملون بشكل منفصل، لكن المصادر تشير إلى قيام أطباء من عقيدة معينة بنوع من التوافق التقاربي وعلاج مرضى من عقيدة أخرى ، فقد كان بعض الفرنجة على استعداد لتلقي العلاج على يد أطباء غير لاتينيين؛ ورغم أنه كان بإمكان الفرنجة استشارة أطباء لاتينيين، إلا أنهم بدوا في بعض الأحيان وكأنهم يفضلون الأطباء اليهود والمسيحيين المحليين والمسلمين، بالإضافة إلى الأطباء اللاتينيين، وقد قدم بعض اللاتينيين مهارات الأطباء المسلمين وغيرهم من غير المسيحيين على التزامهم بهويتهم المسيحية، وقد استنكر وليم الصوري ذلك، منتقداً مهارات الأطباء غير اللاتينيين، ومعتقداً أن الفرنجة يضعون أنفسهم في خطر باستعانتهم بهم. فعندما تلقى بالدوين الثالث دواءً من الطبيب السرياني "باراك"، أصيب بالحمى والدوسنتاريا (الزحار) مما أدى إلى وفات وقد ألقى المؤرخ وليم الصوري باللوم على ريموند الثالث في وفاة بالدوين الرابع قائلاً: "لأن أمراءنا الشرقيين، بتأثير من نسائهم، يزدرون أدوية وممارسات أطبائنا اللاتينيين ولا يؤمنون إلا باليهود والسامريين والسريان و المسلمين، وبكل تهور يضعون أنفسهم تحت رعاية هؤلاء الممارسين ويأتمنون على حياتهم أشخاصاً يجهلون "علم الطب" (William,1992,p.210) لكن لم يكن كل الفرنجة يشعرون بهذا الشعور، ويبدو أنهم لم يكونوا مقيدين باستخدام الأطباء اللاتينيين وحدهم، بل كان بإمكان الأطباء العمل بمرونة بين المجموعات الدينية المختلفة ، فعندما أصيب الملك عموري بالدوسنتاريا (الزحار) والحمى، بحث أولاً عن أطباء من اليونانيين والسريان وغيرهم لعلاجه، لكنهم رفضوا، ربما بسبب الغرامات القاسية التي كانت تُفرض عند الفشل في علاج رجل حر بنجاح، وخاصة الملك، ولم يلجأ إلى طبيب لاتيني إلا بعد رفضهم، موافقاً على تحمل مسؤولية أي فشل في العلاج (عاشور،1971،ص314-315) ويبدو أن الفرنجة سعوا وراء أطباء من أديان ومعتقدات أخرى، مما يشير إلى ثقة في مهارات هؤلاء الممارسين ومعارفهم. ومن المحتمل أن المسلمين كانوا يمتلكون معرفة طبية أكثر اتساعاً، لكن لا يبدو أنهم اعتقدوا أن جميع الأطباء المسيحيين اللاتينيين يفتقرون إلى المهارة. ويقدم أسامة قصصاً عن أطباء فرنجة يفتقرون للمهارة، ولكن أيضاً عن طبيب يقدم رعاية تتجاوز معرفة ابن منقذ ويروي ابن منقذ كيف أرسل عمه "ثابتاً" وهو طبيب مسيحي سرياني، إلى صديق كان رفاقه بحاجة إلى طبيب؛ فوُكل إليه مريضان: فارس مصاب بخراج في ساقه صنع له لبخة، وامرأة تعاني من يبوسة في الأخلاط فغيّر نظامها الغذائي لزيادة رطوبتها ، وبينما كان يعالجهما جاء طبيب فرنجي وأصر على تغيير العلاج ؛ فقام الفرنجي ببتر ساق الفارس، وأكد أن المرأة تعاني من شيطان في رأسها فقام بحلقه وأعادها إلى نظامها الغذائي المعتاد، مما أدى إلى جفاف أخلاطها مرة أخرى وساءت حالتها.(ابن منقذ،1987،ص132-133) ورداً على ذلك شق شكل صليب في جمجمتها وفرك المنطقة المكشوفة بالملح وفي كلتا الحالتين، فإن المريض توفي. ويبدو أن وجهة النظر هذه تدعم رأي ابن منقذ العام إذ يقول بأن الفرنجة كانوا أقل مهارة من أطباء بلاد الشام وفلسطين، وبينما كانت هذه علاجات فاشلة بشكل مأساوي، فقد أقر ابن منقذ أيضاً بمشاهدة أطباء فرنجة أنقذوا مرضاهم؛ فقد رُكل فارس فرنجي يُدعى "برنارد" في ساقه وتقرح الجرح، وظل ينفتح في أماكن مختلفة، فقام طبيب فرنجي بإزالة المراهم المستخدمة لتغطيته، وبدلاً من ذلك غسل الساق بالخل فانغلق الجرح وشفي (بن منقذ،1987، ص130-131). وفي حالة ناجحة أخرى كان لصانع من شيزر يُدعى "أبو الفتح" ابنٌ يعاني من "الخنازير" في رقبته حيث كانت القروح تتشكل بشكل متكرر؛ وبينما كان في أنطاكية، عرض رجل فرنجي على أبي الفتح علاجاً لمرض ابنه بشرط أن يعده بمشاركته مع الآخرين وعدم طلب أجر مقابل ذلك وافق أبو الفتح وأعطاه الرجل الوصفة، التي نجحت مع ابنه، كما نجحت في علاج آخرين، لقد انخرط الأطباء المسلمون والمسيحيون في ذلك التوافق الفكري التقاربي الذي غالباً ما كان

مفقوداً في أشكال التواصل الأخرى بين العقيدتين في بلاد الشام ، فتعلم الأطباء الفرنجة الكثير من الأطباء المسلمين، مستخدمين النصوص الطبية العربية واليونانية(ابن أبي أصيبعة،1995،ص645) التي فُقدت في العالم الغربي، ومتبنين ممارسة الترخيص القائمة على النموذج الإسلامي، ويبدو أيضاً أن المسلمين كان لديهم نوع من الثقة في مهارات الأطباء اللاتينيين، حيث لم يمانعوا هم أيضاً من تلقي العلاج على أيديهم، وعندما جاء الفرنجة للاستقرار في بلاد الشام، جلبوا معهم نفس المعتقدات والمواقف والسلوكيات التي كانت لدى الصليبيين الذين بقوا لفترة مؤقتة فقط ؛ ومع مرور الوقت طور المستوطنون هوية جديدة ميزتهم عن رفاقهم الصليبيين الذين كانوا يقيمون لفترات مؤقتة وعن هوياتهم الأوروبية، مشكّلين هوية "فرنجية" متميزة كانت هذه الهوية منفصلة عن الصليبيين، ولكنها كانت فريدة أيضاً عن الثقافات والشعوب الشرقية التي عاشوا بين ظهراني المسلمين . وظلت القوى الإسلامية المحيطة تُعتبر أعداءً، ولم يكن الفرنجة يمانعون القتال في الحروب المقدسة عند الضرورة؛ ومع ذلك وجد الفرنجة (بدرجة أكبر من الصليبيين الوافدين) أن الحرب المقدسة المستمرة (بن منقذ،1987،ص130-131) هي أمر لا يمكن تحمله وغير مرغوب فيه وكانوا أكثر استعداداً للانخراط في المعاهدات والهدنات لإنهاء النزاعات، أو لمنع اندلاعها في المقام الأول، ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى أن الفرنجة ظلوا دائماً أقلية سكانية، ونادراً ما كانت لديهم القوة البشرية لخوض حروب واسعة النطاق؛ فاعتمدوا على الهدنات من أجل بقائهم، ولجأوا إلى الغرب طلباً للمساعدة عندما كانت الأوضاع تتجاوز قدراتهم حقاً ، وفيما يتعلق برعاياهم، تبنى الفرنجة سياسة التسامح النسبي والتقارب، محتفظين بالعديد من الهياكل السياسية والإدارية التي أسسها المسلمون، ولكن مع وضع أنفسهم في قمة هذا الهيكل الجديد ، وما كان يميز الطبقات الاجتماعية في بلاد الشام هو الهوية الدينية لكل مجموعة، كما تبنوا أيضاً العديد من العناصر المادية للثقافة الشرقية، بما في ذلك الطعام واللباس والمسكن، وما غاب عن الفرنجة عموماً هو التقارب الفكري الأعمق مع المسلمين ، حيث حالت هويتهم الدينية دون ذلك في الغالب ، بينما يمكن العثور على تقارب أكبر ضمن هويات المجموعات المتنافسة؛ فقد طور النبلاء النخبة علاقات اجتماعية مع النبلاء المسلمين الآخرين، وتاجر التجار على نطاق واسع مع المسلمين داخل الولايات الصليبية وحولها، أما أكبر توافق فكري فقد حدث من خلال ممارسة الطب (بن منقذ،1987،ص134-135)

الخاتمة

- كشفت الدراسة أن المعاهدات المبرمة بين الفرنجة والمسلمين كانت بمثابة أداة إجرائية وعملية لإدارة الصراعات العسكرية وتسييرها، ولم تكن تهدف لتحقيق سلام مستدام، إذ كانت تُمليها في الغالب ضرورات أمنية ومصالح اقتصادية.
- أظهرت النتائج أن استمرارية حركة التجارة بين الطرفين في أوج النزاعات المسلحة تجسد التداخل العميق بين منطق العمليات الحربية ومنطق المصالح المادية المشتركة.
- بينت الدراسة أن التجار ولا سيما الإيطاليين منهم، قاموا بدور جوهري في تأسيس شبكات تواصل تخطت الانقسامات الدينية، وهذا ما أفرز نوعاً من التقارب الوظيفي مع الجانب المسلم.
- كما أوضحت النتائج أن الانتماء المهني للتجار كان يطغى في كثير من الأحيان على الانتماء الديني، وهو ما كفل على استمرار التعاون الاقتصادي بالرغم من وجود عداء سياسي قائم.
- أثبتت الدراسة أن المدن الساحلية في بلاد الشام، كعكا وطرابلس مثلت مساحات تفاعل معقدة احتضنت المسلمين والمسيحيين ضمن إطار بيئة اجتماعية واقتصادية موحدة.
- أوضحت الدراسة إلى أن هذا التفاعل المكاني لم يفضِ إلى صهر الثقافات في بوتقة واحدة، بل أنتج تعايشاً محكوماً بشروط تحافظ على التمايز والحدود الدينية والاجتماعية لكل طرف.
- أظهرت الدراسة اعتماد التواصل الدبلوماسي بشكل موسع على الرموز والإيماءات نظراً لافتقاد لغة تواصل مشتركة، مما أدى لابتكار وسائل تفاهم غير لفظية (إيماءات).
- برهنت النتائج أن الحقل الطبي كان المجال الأكثر استجابة للتقارب الفكري بين الجانبين، وذلك بفضل الطبيعة التطبيقية للعلوم الطبية وضرورتها الإنسانية.

- أوضحت الدراسة أن الفرنجة استلهموا من النظم الإسلامية مؤسسات وأنظمة إدارية معينة، مثل آليات تنظيم الأسواق وإجراءات منح التراخيص للأطباء.
- دلّت النتائج إن العلاقة بين السلطة الفرنجية والمسلمين داخل الولايات الصليبية قامت على التدرج الطبقي، حيث صُنفت المكونات المسلمة في مراتب أدنى ضمن المنظومة القانونية.
- أثبتت الدراسة أن الطبقات العليا (النخبة) من الفرنجة كانت أكثر انفتاحاً على التواصل مع المسلمين مقارنة بالطبقات العامة، وذلك بدافع المصالح السياسية والاقتصادية المتبادلة.
- كشفت النتائج أن حالات الزواج المختلط ظلت محدودة وغير مستقرة، وكانت ترتبط في الغالب بالتحول الديني لأحد الزوجين بدلاً من كونها ظاهرة اجتماعية راسخة.
- أظهرت الدراسة أن الهوية الدينية ظلت عائقاً جوهرياً حال دون حدوث اندماج فكري شامل، رغم وجود مظاهر تقارب عملي في صعد متنوعة.
- بينت النتائج أن الممارسات اليومية المشتركة، مثل أنشطة الصيد وارتياد الحمامات والمشاركة في الاحتفالات الموسمية، أسهمت في إيجاد تقارب اجتماعي محدود لكنه اتسم بالاستمرارية

قائمة المصادر والمراجع

- ابن جبير، محمد بن أحمد (1984) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.
- ابن منقذ، أسامة بن مرشد (1987) كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، بيروت.
- ابن أبي أصيبعة (1965) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت.
- ابن شداد، يوسف بن رافع (بهاء الدين) (1978) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) القاهرة.
- أبو العافية، ديفيد (1994) التجارة في العصور الوسطى، ترجمة أحمد الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- البابا، مصطفي (1981) النظم الإسلامية في الحسبة، دار الفكر العربي، القاهرة.
- القرشي، عبدالرحمن (1988) النظم الصحية في الحضارة الإسلامية، دار المعرفة، القاهرة.
- الأصفهاني، محمد بن محمد (عماد الدين) (1978) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- المقدسي، ضياء الدين أبوعبد الله محمد بن عبد الواحد (1991) فضائل بيت المقدس، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، القاهرة.
- نادر، محمد (2007) الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عطية، عزيز سوريال (1980) تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- Asbridge, T (2010) The Crusades, The Authoritative History of the War for the Holy Land. London, Simon & Schuster.
- Bar-Tal, D (2013) Intractable Conflicts, Socio-Psychological Foundations and Dynamics, Cambridge, Cambridge University Press.

- Boas, A. J (2007) Archaeology of the Military Orders, A Survey of the Urban Centres, Rural Settlements and Castles of the Military Orders in the Latin East (c. 1120–1291), London, Routledge.
- Brundage, J. A (1995) Medieval Canon Law, London, Longman.
- Ciggaar, K. N (1996) Western Travellers to Constantinople, The West and Byzantium, 962–1204, Leiden: Brill.
- Edgington, S (1996) The First Crusade, The Accounts of Eye-Witnesses and Participants, Oxford, Oxford University Press.
- Ellenblum, R (2003) Frankish Rural Settlement in the Latin Kingdom of Jerusalem. Cambridge, Cambridge University Press.
- Friedman, Y (2002) Encounter Between Enemies, Captivity and Ransom in the Latin Kingdom of Jerusalem, Leiden, Brill.
- Jacoby, D (1989) Trade, Commodities and Shipping in the Medieval Mediterranean. London, Variorum.
- Kedar, B. Z (1984) Crusade and Mission, European Approaches toward the Muslims. Princeton, Princeton University Press.
- Muldoon, J. (1979) Popes, Lawyers, and Infidels, The Church and the Non-Christian World 1250–1550. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
- Nicholson, H (2001) The Crusades. Westport, Greenwood Press.
- Prawer, J (1972) The Latin Kingdom of Jerusalem, European Colonialism in the Middle Ages, London, Weidenfeld & Nicolson.
- Richard, J (2003) The Crusades: c.1071–c.1291. Cambridge, Cambridge University Press.
- Riley-Smith, J (2005) The Crusades, A History, London, Yale University Press.
- Setton, K. M. (1969) A History of the Crusades, Madison, University of Wisconsin Press.
- Smail, R. C (1956) Crusading Warfare (1097–1193) Cambridge, Cambridge University Press.
- Talmon-Heller, D (1992). Islamic Piety in Medieval Syria, Leiden, Brill.
- William of Tire (1943) A History of Deeds Done Beyond the Sea, Translated by E. A. Babcock & A. C. Krey. New York, Columbia University Press.